

التبيان في تفسير القرآن

(464) قوله تعالى: أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون (20) آية أخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار الذين وصفهم بأن عليهم لعنة الله وأنهم الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً بأنهم غير " معجزين في الأرض " أي لم يكونوا فائتين فيها هرباً من الله تعالى إذا أراد إهلاكهم كما يهرب الهارب من عدو، وقد جد في طلبه. والاعجاز الامتناع من المراد بما لا يمكن معه إيقاعه، وانهم لم يكن لهم ولي يستطيع الدفاع عنهم من دون الله. والولي الخصم بأن يلي بالمعاونة لدفع الأذية، ومنه قولهم: تولاك بحفظه، فلا ولي لهؤلاء يعاونهم ويدفع العقوبة عنهم، لأن الله تعالى قد أيأسهم من ذلك. وقوله " يضاعف لهم العذاب " قيل في معناه قولان: أحدهما - بحسب تضاعف الاجرام. والآخر - كلما مر ضعف جاء ضعف، وكله على قدر الاستحقاق. وقوله " ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون " معناه انه كان يثقل عليهم سماع الحق ورؤيته، كما يقال: فلان لا يستطيع النظر إلى فلان، وحقيقة الاستطاعة القوة التي تنطاع بها الجارحة للفعل، ولذلك لا يقال في الله انه يستطيع. وليس المراد بنفي الاستطاعة في الآية نفي القدرة بل ما ذكرناه، لانه لو لم يكن فيهم قدرة لما حسن تكليفهم. وقد ذكر الفراء فيه وجهاً مليحاً، فقال: المعنى يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السمع ولا يعقلون، وحذف الباء كما قال " اليم بما كانوا يكذبون " (1) أي بتكذيبهم وسقوط الباء جائز، كما قال " احسن ما كانوا يعملون " (2) ويقول _____ (1) سورة 2 البقرة آية 10 (2) سورة 9 التوبة آية 122 (*)